

إلى أين يسير العالم؟ جوابات بعض الفلاسفة المحدثين والمعاصرين: إرادة الرضا وإرادة القوة وإرادة الوجود (هيغل، نيتشه، هايدغر)

■ محمد الشيخ

لعلّ أحد أوائل الفلاسفة الذين طرحوا السؤال: «إلى أين يسير العالم؟» الفيلسوف الألماني فريدريش نيتشه. وقد ورد سؤاله هذا في سياق الردّ على نبرة الحداثة المتفائلة التي وعدت الإنسان بتحقيق الرضا بعد أن كان يتسخط ماضيه وحاضره، وبعد أن كانت أويقات «السعادة» في تاريخ الشعوب - كما يقول هيغل - عبارة عن صفحات بيضاء فارغة، لم يُرَقَم عليها أي شيء ضمن مجلدات متكدسة من تاريخ البشرية مضمخة بالصفحات السوداء، بل ومدبجة بالحمراء كثيراً... في هذه المقالة تقديم - على جهة الجدلية - لجواب ثلاثة فلاسفة عن هذا السؤال الذي كان طرحه نيتشه: جواب أهل الحداثة من الراضين عمّا حققته للإنسان (هيغل)، وجواب نيتشه نفسه رداً على «نبوءات» سلفه المترضي، وجواب هايدغر الفيلسوف الذي تأخر عن نيتشه وضمه في زمرة الحداثيين المترضين لواقع تسيد الإنسان على الطبيعة ومآلات هذا التسيد.

■ باحث، وأستاذ في الفلسفة الحديثة، المغرب.



إلى أن يسير العالم؟ جواب هيغل: نحو ترضي الإنسان ونهاية التاريخ؟

لطالما استشهد هيغل بقول الحكيم الإغريقي أبيقور: «أما فيما يتعلق بالمستقبل فلا يمكن أن نجزم بالقول: إنه أمر في متناولنا أو غير ذلك؛ وذلك حتى لا نُدفع إلى انتظاره كأمر متحقق فيما يأتي من الزمان، وحتى لا نقنط منه كأمر ما كان ليحصل فيما يستقبل من الأوقات»، ولطالما علق عليه بقوله: «سواء تحقق المستقبل أم لا؛ فإن هذا الأمر لا يهمننا؛ إذ لا ينبغي أن نوطن أنفسنا على الانزعاج منه. ذلك هو القول الحق في أمر الزمن الآتي»¹.

ولعلّ الذي حدا بهيغل إلى رفض التنبؤ بالمستقبل قَرْنُهُ قرناً وثيقاً بين الفلسفة والحاضر، بحكم أن لا فلسفة عنده ما لم تكن «فلسفة حاضر» بامتياز؛ أوليس شأن الفلسفة عنده: «إدراكاً للحاضر والواقع الحاصل»، وأن حقيقتها «دراسة العالم الواقعي المتحقق»؛ ومن ثمة «[ما كانت] مهمتها أن تشيد عالماً في الماوراء، عالماً مزعوماً لا يعلم سوى الله أين يوجد»²، وأليس هو القائل: «إن مهمة الفلسفة لتتحصّر في تصوّر ما هو كائن؛ لأن ما هو كائن ليس إلا العقل نفسه. ولو أننا نظرنا إلى المسألة من وجهة نظر الفرد لرأينا أن كلاً منا هو ابن عصره وربيب زمانه. وبالمثل يمكن أن نقول عن الفلسفة: إنها عصرها ملخصاً في الفكر. وكما أن من الحمق أن نتصور إمكان تخطي الفرد لزمانه، فإنه من حماقة أيضاً أن نتصور إمكان تجاوز الفلسفة لزمانها الخاص، أو أن الفرد يستطيع أن يجاوز زمانه... وإذا استطاعت نظرية ما أن تتجاوز العالم الواقع فعلاً، وأن تبني المثل الأعلى للعالم على نحو ما ينبغي أن يكون عليه، فإن هذا العالم يكون له وجود بغير

1 - G. W. F- HEGEL. *Leçons sur l'histoire de la philosophie*, tome 4, la philosophie grecque: Le dogmatisme et le scepticisme, les néoplatoniciens. Traduit de l'allemand par Pierre Garniron. Paris: librairie philosophique Jean Vrin, 1975, (collection des textes philosophiques), p. 730.

2 - هيغل: أصول فلسفة الحق. ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، المكتبة الهيكلية، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1996، ص 111.

شك؛ ولكن في رأس صاحب النظرية فحسب، على هيئة عنصر لا قوام له، فما تريده أياً كان لا يمكن أن تبنيه في عالم الخيال»³.

ذاك كان دأب حال نظرة هيغل إلى أبعاد الزمان الثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل؛ فعنده أن كل شيء ينبع من الحاضر ويؤوب إليه، وأنه لا الفأئ يُعتدّ به، ولا الآتي يُنتظر، وإنما الحادث وحده يُفهم. أما الماضي؛ فبالرغم من أن هيغل خصص له أزيد من ثلاثة أرباع فلسفته في التاريخ؛ فإنه لم يكن ليُجعل منه أسوة. قال هيغل: «يطالب الحكام والساسة والشعوب بأن يتعظوا من تجارب الماضي؛ غير أن ما تعلمنا إياه التجربة والتاريخ؛ هو أن الشعوب والحكومات لم تتعلم شيئاً قط من التاريخ؛ ولم تعمل وفقاً لمبادئ مستمدة منه»⁴؛ وذلك بسبب من بُعد الشقة بيننا وبين شعوب الماضي.

لعلّ الذي حدا بهيغل إلى رفض التنبؤ بالمستقبل قرّنه قرناً وثيقاً بين الفلسفة والحاضر، بحكم أن لا فلسفة عنده ما لم تكن «فلسفة حاضر» بامتياز؛ أو ليس شأن الفلسفة عنده: «إدراكاً للحاضر والواقع الحاصل».

وبه يتبين أن هيغل امتنع عن النبوءة بالمستقبل قولاً وفعلاً؛ لكنه ما لبث أن «ناقض» نفسه في المواضع العديدة؛ إذ انثالت النبوءات على لسانه بُدوّ كوامن أحداث المستقبل في بلورة الكاهن. وقد أحصينا هذه الاستشرافات فوجدناها لا تقل عن ست، لكننا سوف نقتصر منها هنا على ما يتعلق بالجواب عن السؤال: إلى أين يسير العالم؟

في المقدمة إلى كتاب فلسفة التاريخ - الموسومة باسم «العقل في التاريخ» - قال هيغل مُتنبئاً بمستقبل الولايات المتحدة الأمريكية: «أمريكا إذن هي أرض المستقبل. فها هنا سوف يتكشف في العصور القادمة عنصر مهم من عناصر تاريخ العالم، وربما كان ذلك على شكل نزاع بين أمريكا

3 - هيغل: أصول فلسفة الحق، مصدر سابق، ص 116.

4 - G. W. F- HEGEL, *La Raison dans l'Histoire*, traduit par Kostas Papaioannou. Paris: Union générale d'édition, 1965. Collection: 10/18, p. 35.

الشمالية وأمريكا الجنوبية. إنها بلاد الأحلام لكل أولئك الذين ملوا وضجروا من مخزن الأسلحة التاريخي في أوروبا القديمة. ويروى عن نابليون أنه قال: «أوروبا القديمة هذه تشعرني بالسأم». وعلى أمريكا أن تنفصل عن الأرض التي تطوّر عليها تاريخ العالم الآن»⁵. وكذلك فعل في رسالة إلى صديقه وتلميذه الروسي البارون بوريس ديكسكول (28 نوفمبر 1821)، حين قال مُتنبئاً بمستقبل روسيا: «يا لسعادتك أن يكون لك وطن (روسيا) له مكانة عظيمة في تاريخ العالم، وسيكون له - من غير أدنى شكّ - مصير أعظم في المستقبل. ويبدو كما لو كانت الدول الحديثة قد بلغت - بدرجات متفاوتة - نهاية تطورها، ولربما كان الكثير منها قد تجاوز النقطة العليا من هذا التطور وصار راكداً ساكناً؛ أما روسيا فعلى العكس من ذلك - وهي ربما كانت أقوى الدول - تحمل في صدرها قدرة هائلة على تنمية طبيعتها العميقة»⁶. هذا فضلاً عن نبوءات أخرى عجّت بها فلسفته في التاريخ؛ مثل نبوءته حول الصين من حيث إنها سائرة إلى أن تخضع إلى الهيمنة الأوروبية شأن سائر دول الشرق، أو نبوءته عن الأمم البولونية من حيث هي بمكنتها أن تحظى بأهمية في تاريخ المستقبل من حيث لم تدخل بعد إلى عالم التاريخ الكوني من بابه الواسع، أو نبوءته عن الهنود الحمر من حيث هم سائرون على المدى البعيد إلى أن تثبت فيهم روح الاستقلال؛ تلك الروح الأوروبية الخالصة.

تلكم إحدى المفارقات التي يشهد عليها متن هيغل. ها هناك رفض للنبوءة بالمستقبل إنْ نظراً أو رؤياً، إن استشرافاً أو استشعاراً، علماً أو كهانة، وها هنا شواهد على نبوءات كائنة واستشرافات حاصلة، فكيف السبيل إلى رفع ما يبدو على أنه «مناقضة»؟ الواقع أنه ما من سبيل إلى فهم هذه المناقضة الظاهرة إلا باستحضار تصور هيغل للزمن مجدداً؛ نعني استحضار ما يسميه «ميتافيزيقا الزمن» - والمصطلح استعمله هيغل نفسه في دروسه عن تاريخ

5 - هيغل: العقل في التاريخ. ترجمة إمام عبد الفتاح، دار التنوير، الطبعة الثانية، 1981، ص 154.
6 - أورد الرسالة عبد الرحمن بدوي في كتابه الموسوم: حياة هيغل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، 1980، ص 99.

الفلسفة⁷ - والتي مفادها أن: «الفكرة - منظوراً إليها في حالة سكون - هي في الواقع بلا زمان. والتفكير فيها في حالة سكون هو المسك بها في شكلها المباشر، وذلك يرادف الحدس الداخلي لها. غير أن الفكرة من حيث هي عينية - شأنها شأن وحدة بين مختلفات - ليست بالضرورة حدساً، بل هي على العكس، من حيث تمايز نفسها داخل ذاتها، ومن ثم فهي تتطور، تدخل إلى الوجود ذاتها، وهي كذلك تدخل إلى التخارج في صورة الفكر»⁸. وهنا «الفكرة»؛ وهي حضور خارج الزمن وأبدية فوق الدهر. غير أن هذه الفكرة لما تتحقق في الوجود تصبح داخل الزمن، وتتطور هوية يدخلها عمل السلب والتناقض والجهد.

في أصقاع عديدة من العالم لا يزال يسود العسف بدل الحرية، وتحيا الجوهريّة المتبدلة محل الذاتيّة، وتنمو اللاعقلانيّة فتقمع العقلانيّة؛ صحّ أيضاً أن هذه الأمور المخالفة للعقل يلزم أن تزول.

تأسيساً عليه، نطرح السؤال مجدداً: إلى أن يسير العالم؟ وجواب هيغل: أولاً: فكرة «الحرية» متحققة في الواقع وإن بنسبٍ مختلفة، وفكرة «الذاتية» حائلةً بالعالم وإن بدرجات متباينة، وفكرة «العقلانية» مبسوطة في الأرض وإن بمقادير متفاوتة. ومن ثم فإن «الحرية» و«الذاتية» و«العقلانية» - وهي سمات الحداثة الجوهريّة التي صار بها تقدم العالم يتقوم - ما عادت من باب «ما ينبغي أن يكون»؛ وإنما مستحالة في عالم اليوم

ومتحققة فيه، ولئن صح أنه في أصقاع عديدة من العالم لا يزال يسود العسف بدل الحرية، وتحيا الجوهريّة المتبدلة محل الذاتيّة، وتنمو اللاعقلانيّة فتقمع العقلانيّة؛ صحّ أيضاً أن هذه الأمور المخالفة للعقل يلزم أن تزول. وإن لشأنها أن تزول وتنمحي بحكم مخالفتها لروح العصر. بهذا قضى منطوق التاريخ.

7 - G. W. F- HEGEL. *Leçons sur l'histoire de la philosophie*, tome 1, tome1: Introduction, système et histoire de la philosophie, traduit de l'allemand par J. Gibelin. Paris: Gallimard nrf, 1970. p. 52.

ترجمة إمام عبد الفتاح، ص 118.

8 - G. W. F- HEGEL. *Leçons sur l'histoire de la philosophie*, tome 1, op. cit., p. 53.

الترجمة العربية، ص 119.



قد يعترض معترض على هيغل الاعتراض التالي: إنَّ الفكرة - سيادة العقل - وإن تحققت في بعض ممارسات الدول الأوروبية؛ فإن بقية الدول لا تزال تشهد غيابها. لكن هيغل يرى أنه مهما كان مصير هذه الدول؛ فلن يكون سوى تحقيق الفكرة «الأوروبية»، والمسألة عنده ليست مسألة فلسفية ومبدئية؛ وإنما هي مسألة اختبارية؛ أي مسألة تنفيذ وتحقيق؛ إذ ما أن يلاحظ هيغل أن الكثير من الدول في العالم تعدم تحقيق مبدأ العقل في واقعها؛ حتى يجد أن «المسألة مسألة أمبريقية»؛ أي مسألة تطبيق، ثم يعقب بأنه - بوفق هذا الوجه من الاعتبار - فإنه: «ما زال هناك شيء كثير ينتظر العمل على تحقيقه»⁹.

والحق أن هذا الاعتبار مبني على مقدمة أساسية، فضَّل هيغل القول فيها، فكتب يقول: «إن تاريخ العالم لا يشبهه قصص المغامرات [الرومانسية]؛ فهو ليس مجموعة أعمال وأحداث عارضة، وما العرضية بحاكمته ولا المصادفة بالمهيمنة عليه وليست الأحداث التي تقع فيه مجموعة من المغامرات يقوم بها فرسان جوالون، ولا هي أعمال أبطال يخوضون معارك عابثة، ويبذلون الجهد، ويضحون بأنفسهم لبعض الأمور التافهة؛ فالأحداث لا تمر أبداً من دون أثر، وإنما هي تشكل فيه تسلسلاً ضرورياً»¹⁰. للتاريخ إذن مبدأ ومنتهى تقودهما غاية. وما هي يا ترى هذه الغاية؟ وهل تحققت واقعاً؟ الحال أن جواب هيغل عن هذين السؤالين لا مرية فيه ولا شبهة؛ يقول: «إن غاية التاريخ الكوني لهي بالتدقيق أن تتطور الروح حتى تشكل طبيعة ثانية؛ أي عالماً مطابقاً لها تجد فيه الذات مفهومها عن الروح، وتبلغ في موضوعيته وغيها بحريتها ومعقوليتها الذاتيتين. في ذلك يكمن تطور الفكرة عامة، وتلك كلمة التاريخ النهائية. أما ما تبقى - نعني التحقق الفعلي للفكرة - فذلك هو التاريخ نفسه: إن مدار المسألة فيما يتعلق بوجود أشياء لا تزال تحتاج إلى مزيد عمل إنما هو منوط بمسألة أمبريقية»¹¹.

G. W. F- HEGEL. *La Raison dans l'Histoire*, op. cit., p. 296. - 9

G. W. F- HEGEL, *Leçons sur l'histoire de la philosophie*, tome 1, op. cit., p. 111-112. - 10

الترجمة العربية، ص 184 - 185.

G. W. F- HEGEL, *La Raison dans l'Histoire*, op. cit., p. 296. - 11

وأنى تصرفت الأحوال؛ فإن هيجل كان يرى في الثلث الأول من القرن التاسع عشر أن العالم غير الغربي لا محالة لاحق للعالم الغربي في تحقيق «أواني الحداثة» [الدستور والدولة العاقلة والبيروقراطية والتنظيم العقلاني وغيرها]، وأنه بعد أن يحقق معانيها [الحرية والفرسانية والعقلانية] فإنه كيفما كان مآل الدول غير الأوروبية لا محالة لاحقة بالنموذج الحدائي الغربي؛ بما يتطلبه من دستورية دولة قوية المركزية في إدارتها، غير قَوَّيَّتْها في مصالح أفرادها الاقتصادية، دولة قائمة على موظفين أكفاء من غير تمييز طبقي أو عرقي أو ترابتي، دولة لا دين لها، ذات سيادة مطلقة في الداخل، كما في

إن هيجل كان يرى في
الثلث الأول من القرن
التاسع عشر أن العالم
غير الغربي لا محالة
لاحق للعالم الغربي في
تحقيق «أواني الحداثة»
[الدستور والدولة العاقلة
والبيروقراطية والتنظيم
العقلاني وغيرها].

الخارج: وبالجملة، دولة حديثة على نحو ما هي موجودة في أوروبا، دولة حرة من حيث هي سمة حداثية. ولذلك حين ذكر هيجل المبادئ الفلسفية التي قامت عليها الحداثة السياسية الغربية قال: «هذه هي المبادئ الكونية التي تسند إليها أسس الدول الحديثة؛ علماً أنها ما زالت لم تشكّل بعدُ أسس كل الدول وإنما أغلبها. وإن بعض هذه الدول المستثناة قد حققت هذه المبادئ واستكملتها، وبعضها تصارع لدرك ذلك. ومهما يكن من أمر؛ فإن هناك اعترافاً كونياً بأن هذه المبادئ هي التي يلزم أن تشكّل صُلبَ الإدارة والحكومة في كل بلد»¹².

قال الحكيم عن زمنه: «إننا لا زلنا نعلم أنه توجد شعوب لا تقدر حتى على تشكيل مجتمع، فأنى لها تشكيل دولة؟»¹³، خذ مثلاً سكان أمريكا الأصليين، هؤلاء يجد هيجل أن ثقافتهم «كانت وطنية محلية تماماً، تنقضي بمجرد ما تقترب الروح منها»، فلم يشكّلوا بذلك مجتمعاً، وبالأحرى دولة،

12 - G. W. F. HEGEL, *Leçons sur l'histoire de la philosophie*, tome 3, *la philosophie grecque*, Platon et Aristote, traduit de l'allemand par Pierre Garniron. Paris: Vrin, 1972. (collection: Bibliothèque des textes philosophiques.), p. 411.

G. W. F. HEGEL, *La Raison dans l'Histoire*, op. cit., p. 192.

وإنما كانوا يحيون حياة الطبيعة؛ على «حال الخشونة والهمجية»، حيث تعدم الحرية وينتفي الاستقلال، ولذلك «سوف ينقضي وقت طويل قبل أن ينجح الأوروبيون في أن يبثوا فيهم روح الاستقلال»¹⁴، تلك الروح التي تُعدُّ أهمَّ أمانة من أمارات الحداثة. وثنَّ بمثالٍ آخر من أفريقيا «أرض الطفولة، التي تترقد فيما وراء نهار التاريخ الواعي لذاته، يلفها حجاب الليل الأسود»¹⁵، فواقع هذه القارة دفع هيغل إلى القول: «إن ما نفهمه من اسم إفريقيا هي الروح غير المتطورة التي لا تاريخ لها، ولا تطور أو نمو، والتي لا تزال منغلقة تماماً، وفي حالة الطبيعة المحضة، والتي كان ينبغي أن تعرض هنا بوصفها واقعاً على عتبة تاريخ العالم فحسب»¹⁶، فلا مجتمع قائماً بإفريقيا، ولا دولة، وخذهُ يسود الاعتبار والعسف؛ ولذلك كله يقول: «علينا أن نترك إفريقيا ولا نعود إلى ذكرها مرةً أخرى؛ لأنها ليست جزءاً من تاريخ العالم»¹⁷ وتلثُ بمثالٍ آخر مأخوذ من الماضي هذه المرة: فهذه حضارة الإسلام أسهمت بجهد مستطاعها في حركة التاريخ الكوني؛ لكن «اليوم وقد اضطر الإسلام إلى الانكفاء في آسيا وأفريقيا، وإلى الانكماش في جزءٍ ضئيلٍ من أوروبا، إثر تكالب القوى المسيحية ضده، اندحر منذ زمن غير يسير من مجال التاريخ الكوني. وهو يحيا الآن في فتور حمية الشرق وسكينته الخمولية [غير التاريخية]»¹⁸، وبذكرنا الإسلام نذكر الشرق، ذلك أن «تاريخ العالم يتجه من الشرق إلى الغرب؛ لأن أوروبا هي نهاية التاريخ على نحو مطلق، كما أن آسيا هي بدايته»¹⁹.

على أنه بالرغم مما يوحي به هذا القول من «اكتمال» حركة التاريخ بل «نهايتها»، فما هنا تحديات ثلاثة ما زالت مطروحة فيما يتعلق بالسؤال: إلى أين يتجه العالم؟

14 - هيغل: العقل في التاريخ، ص 149.

15 - هيغل: العقل في التاريخ، ص 161.

16 - هيغل: العقل في التاريخ، ص 171.

17 - هيغل: العقل في التاريخ، ص 170.

18 - G. W. F. HEGEL. *Leçons sur la philosophie de l'histoire*, traduit de l'allemand par J. Gibelin. Paris: Vrin 1979. (collection: Bibliothèque des textes philosophiques), p. 278.

19 - هيغل: العقل في التاريخ، ص 175.

أولها: مشكلة الفقر؛ ذلك أن تطور المجتمع المدني القائم على تدافع الأنايات الخاصة وتمانعها - تولدت عنه ظاهرة «تفقير» فئات عريضة من الشعب؛ ولذلك يقول هيغل في فلسفة الحق: «أما السؤال العام حول كيف يمكن التغلب على الفقر؛ فهو يمثل واحدة من أكثر المشكلات إزعاجاً للمجتمع الحديث»²⁰.

وثانيها: مشكلة اعتماد دول - محسوبة على الحداثة - على مبادئ غير حداثية؛ من عسف وتسلط، بل وطغيان. إلا أن هيغل يرى أن هذه الحالات - التي يقرّ بأن الواقع يشهد على وجودها - «حالات غير واقعية»؛ بمعنى غير معقولة. ولما كان ما من أمر غير معقول إلا وهو غير واقعي؛ فإنها لا محالة آيلة إلى الأخذ بعقلانية الحداثة.

**كانوا يحيون حياة الطبيعة؛
على «حال الخشونة
والهمجية»، حيث تعدم
الحرية وينتفي الاستقلال،
ولذلك «سوف ينقضي وقت
طويل قبل أن ينجح
الأوروبيون في أن يبثوا
فيهم روح الاستقلال»،
تلك الروح التي تُعدُّ أهمَّ
أمارات الحداثة.**

وثالثها: التعارض الموجود داخل الديمقراطية بين ما تطلبه «حكمة» إدارة شؤون الدولة وحسن إيالتها، من عدم اعتداد بالعدد (الأغلبية)، ومن اقتداء بالحكمة (الأقلية) وإن كانت أقلية، وما تفرضه «الأعداد» داخل قبة البرلمان (التصويت

بالأغلبية) من ترجيح كفة العدد (الكثرة) على الحكمة (القلة). مما قد يسفر عن لعبة عبثية تجعل الدول رهينة العدد. وقد أعلن هيغل: «ها هنا أصل الخلاف وموطن الصدام. ها هنا المشكلة التي بلغها تطور التاريخ، والتي عليه أن يحلها فيما يستقبل من الزمان»²¹.

انتهى التاريخ إذن بالتحقق المبدئي لقيم الحداثة الثلاث، أما البقية فمجرد تفاصيل، وها قد أدرك الحكيم هذه النهاية بالنظر!

20 - هيغل: أصول فلسفة الحق. مصدر سابق، ص 642.

G. W. F. HEGEL. *Leçons sur la philosophie de l'histoire*, op. cit., p. 343.



إلى أين يسير العالم؟

جواب نيتشه: عدمية إفناء الناس وإبداعية المشرّعين الجدد

يتساءل نيتشه: «إلى أين يسير عالمنا الحديث؟ أنحو الإنهاك أم نحو الانبعاث؟»، ويلاحظ «أن تعدّد المناحي التي انتحاهها واضطراب التوجهات التي سلكها متأنيان من كونه بدأ يعي نفسه وغياً حاداً»²². على أن هذا الوعي قد بلغ أحد طريقتين: إما أن تمضي أوروبا نحو الإنهاك التام - وذلك هو ما عبر عنه نيتشه بميسم «عصر أوروبا الصيني» - أو تسير نحو نهضة جديدة - وذلك معقد ما عبّر عنه مفكر الأزمنة الحديثة التراجمي باسم «تجاوز العدمية». وهو على التحقيق عهد جدل بين ترويض «العبيد» وإنشاء «السادة» الجدد. ها هنا يجد نيتشه نفسه أمام مفترق طريقتين: إما التسليم بالعصر والاستسلام للحدثة، على الطريقة الهيكلية الواقعية المترضية، بوصفها تعبر عن العالم الواقعي المعقول. وهو لا يجسد هذا الموقف. وإما تبني جهة النظر المضادة؛ نعني اليأس والتخلي عن كل مقاومة والتوحد، وسلوك سياسة النابذة المتفرد. ونيتشه يرفض هذا الطريق أيضاً. وبين خُدام الأمر الواقع المترضين والمعتزلة المتوحدين يتخذ نيتشه موقع المصارعين لزمانهم؛ أولئك الذين امتلأوا إيماناً بالمستقبل وشجاعة، وأملأ في محاربة ما سماه الشاعر الألماني شيلر «مقاومة العالم الحداثي الجامد البليد»، إلى أن يجيء اليوم الذي يتوارى فيه الأمر الوضع، ويظهر فيه الشأن النبيل²³. إن العهد الحالي ناجم عن محاولة الإنسان الحديث تجاوز ما سماه نيتشه «عهد أوروبا المسيحي»²⁴. إلا أن هذا التجاوز نحو الدنيوية ما كان سليماً، وإنما كان سقيماً. لقد انتهى إلى دنيوية القيم الدينية، وإلى سيادة النزعة

22 - Friedrich NIETZSCHE, *La volonté de puissance* [1995], trad. de l'allemand par Geneviève Bianquis. Édition de Friedrich Würzbach. Tome I, Collection Tel (No 259) (1995), §272, p. 108.

23 - Friedrich NIETZSCHE, *Sur l'avenir de nos établissements d'enseignement*, trad. de l'allemand par Jean-Louis Backes. Édition de Giorgio Colli et de Mazzino Montinari, préface de Jean-Claude Hémery. Collection Idées (No 307) (1974), Gallimard., p. 79-80.

24 - Friedrich NIETZSCHE, *Par delà le bien et le mal*, Paris: Union Générale d'édition, 1971, §189, p. 145.

التعادية، وإلى شيوع العدمية. وإن التعادية التي كادت تنتهي إليها الحداثة كانت تبغي توحيداً نمطياً بين كل الناس، بحيث يصير هُمُّ البشر - لآلاف السنين - ابتغاء طريقة الوجود التي يستقر فيها تطور الإنسان، ويجمد على نمط واحد، ولا تصير لبعض على بعضهم الآخر ميزة؛ فيجيء بذلك «عهد الهدوء والجمود الصيني»، وذاك عصر عبودية معمرة²⁵. وتلك هي البشرية وقد تحولت إلى رمل، وتحول البشر إلى حبات رمل شديدة التماثل، دقيقة الصغر حد القزمية، مستديرة هادئة مستكنة، مثيرة للضجر مورثة للقنوط. وفي هذا انسحاق للفرد والنخبة والأرستقراطية وانغمار²⁶. ولا غرابة في ذلك؛

فمؤسسات الحداثة لا تبغي إلا تكوين الإنسان العامي المتوسط، وإن الإنسان الذي تربي في أحضان العدمية هذه لهو ما يسميه نيتشه «الإنسان الصيني» أو «الإنسان الأخير»؛ مقابل الإنسان الذي بمكنته تجاوز العدمية، والذي يسميه نيتشه «الإنسان الأعلى».

وقد كتب نيتشه في مخطوطة كتاب زرادشت: «الإنسان الأخير: ذاك ضرب من الإنسان الصيني»، وأضاف: «إن نقيض الإنسان الأعلى هو الإنسان: لقد صورتُ هذا في الوقت نفسه

الذي نشأ لدي فيه تصور عن ذلك»²⁷. لقد صار الأوروبي إنساناً باحثاً عن الثروة واللذازة، وهو لا يعلم أنه سائر إلى عبودية روحية لم يشهد لها

يتساءل نيتشه: «إلى أين يسير عالمنا الحديث؟ أنحو الإنهاك أم نحو الانبعاث؟»، ويلاحظ «أن تعدد المناحي التي انتحاه واضطراب التوجهات التي سلكها متأتیان من كونه بدأ يعي نفسه وعياً حاداً».

Friedrich NIETZSCHE, *La volonté...*, tome 2, op. cit., §65, p. 291. - 25

Friedrich NIETZSCHE, *Le gai savoir suivi de Fragments posthumes (Été 1881 - Été 1882)* - 26 (Œuvres philosophiques complètes, V) [1967], trad. de l'allemand par Pierre Klossowski. Édition de Giorgio Colli et de Mazzino Montinari. Édition revue, corrigée et augmentée par Marc B. de Launay en 1982. Collection Oeuvres philosophiques complètes (No 5) (1982), Gallimard, §11[287], p. 418.

Friedrich NIETZSCHE, *Ainsi parlait Zarathoustra*. Édition de Giorgio Colli et de Mazzino Montinari, trad. de l'allemand par Maurice de Gandillac. Collection Folio essais (No 8) (1985). Gallimard, note 3 de la page 26, p. 412. - 27

التاريخ سابقاً؛ إنما الحداثيون أصحاب: «صغار الفضائل والمحاذرات ومراعاة ذرات الرمل وأكوام النمل وملذات الذات المثيرة للشفقة، وطلب سعادة للعدد الأوفر بين الناس»²⁸. وهم فرحون بما لديهم بتزليل مملكة الوثائم والعدالة على الأرض؛ يَبْدُ أنها مملكة الرداءة والندالة. وقد وضع نيتشه سقفاً لظهور هذا الإنسان في القرن العشرين؛ حيث تنبأ بإمكان أن تنشأ «طريقة حياة صينية أوروبية»، تجمع بين أمور ثلاثة: عقيدة بوذية نَمَّتْ عن وهن، مساواة على الطريقة المسيحية، ممارسة للحياة رواقية تتسم بالحذر والاحتراس. وإنما لاختزالات للإنسان ومسخ²⁹. والحال أن للقرن العشرين وجهين: وجه انحطاط تسود فيه «الحياة الصينية» داخل أوروبا، وتستند في النظر إلى نزعة بوذية مسيحية، وفي الممارسة إلى حياة على الطريقة الأبيقورية الطالبة للملذات والسعادة³⁰. لكن - في الوقت نفسه - في ذلك القرن يمكن للإنسان أن يدرس شروط أعلى حضارة ممكنة، وتتمكن العقول العظيمة من إعداد «الإنسان المقبل»³¹؛ ذلك أن نيتشه لم يكن مفكراً سلباً وعدم، بل كان مفكر إيجاب أيضاً. فلئن أتى للبشرية - في مشروعه لقلب القيم - بالدمار والخراب، وناقض ألفي قرن من تاريخها وأبطل؛ فإنه - بإقراره - لم يكن ذا ذهنية نفيية. ولئن كان - بدءاً منه - قد تمت التعرية عن قيم الحداثة، فإنه أيضاً - بالبدء منه - لاحت الآمال في الأفق من جديد. إذ لزم ألا ننسى - بهذا الصدد - أنه حامل نبأ سعيد، وإن لم يكن نبياً. وإن النبوءة - الحائلة لا محالة - التي بها بَشَّرَ البشرية لهي: «أتيت لأخبركم بالإنسان الأعلى».

28 - Friedrich NIETZSCHE, *Ainsi parlait ...* (De l'homme supérieur), op. cit., §3, p. 348.

الترجمة العربية بتصرف، ص 314.

29 - Friedrich NIETZSCHE, *La volonté...*, tome 2, op. cit., §81, p. 297.

30 - Friedrich NIETZSCHE, *Fragments posthumes* (Printemps - Automne 1884) (Œuvres philosophiques complètes, X) [1982], trad. de l'allemand par Jean Launay. Édition de Giorgio Colli et de Mazzino Montinari. Collection Œuvres philosophiques complètes (No 10), Gallimard, §25[222], p. 86.

31 - Friedrich NIETZSCHE, *Humain, trop humain*. Un livre pour esprits libres [1981], trad. de l'allemand par Robert Rovini. Édition de Giorgio Colli et de Mazzino Montinari (1968). Tome II. Collection Idées (No 442) (1981), Gallimard, §25, p. 52.

والناظر الممعن في الحثيات التي دلّ بها نيتشه على مجيء «الإنسان الأعلى» يلقي أن نيتشه تارة يسمي جماعة الإنسان الأعلى «نخبة»، وتارة «عرقاً»، وطوراً يدعوها «طرازاً»، وطوراً «أوليغارشية»³². وكل هذه نتاج «الفكرة الكبرى الانتقائية». وهي تقوم على أساس أن الإنسان يؤسس شكلاً أعلى من الوجود هو الوجود، الأرسقراطي المستقبلي، الذي شأنه ألا ينهض إلا على أنقاض الإنسان المتوسط العادي Homo Communis³³.

تُرى، ما سمات هذا «الإنسان الأعلى» المستقبلي؟ وما قيمه؟ بات «الإنسان الأعلى» - في تاريخ العالم اليوم - مطلوباً، وذلك بعد أن ووجه دوماً

**الناظر الممعن في
الحثيات التي دلّ بها
نيتشه على مجيء
«الإنسان الأعلى» يلقي أن
نيتشه تارة يسمي
جماعة الإنسان الأعلى
«نخبة»، وتارة «عرقاً»،
وطوراً يدعوها «طرازاً»،
وطوراً «أوليغارشية».**

بضده الإنسان المدجن القطيعي، الحيوان ذي الحقوق المتكافئة المتساوية؛ يعني به الإنسان الحيوان الواهن المسيحي... ولذلك لزمّت صناعة الإنسان الأعلى؛ أي تربيته وتهذيبه وتشذيبه³⁴.

ها هنا ينبثق مفهوم مستجد للفيلسوف ودور مستأنف: الفيلسوف من حيث هو الباحث عن إمكانات جديدة³⁵؛ أي من حيث هو «مقيم» لقيم مستجدة، أو قل: «الفيلسوف من حيث هو مشرّع، ومن حيث هو مجرب إمكانات جديدة»³⁶. وذلك

32 - Friedrich NIETZSCHE, *La volonté...*, tome 2, op. cit., §234, p. 342.

33 - Friedrich NIETZSCHE, *La volonté...*, tome 2, op. cit., §477, p. 419.

34 - Friedrich NIETZSCHE, *Fragments posthumes*, (Automne 1887 - Mars 1888) (Œuvres philosophiques complètes, XIII) [1976], trad. de l'allemand par Pierre Klossowski et Henri-Alexis Baatsch. Édition de Giorgio Colli et de Mazzino Montinari, Collection Œuvres philosophiques complètes (No 13), Gallimard, §11[414], p. 265.

35 - Friedrich NIETZSCHE, *Fragments posthumes (Automne 1884 - Automne 1885)* (Œuvres philosophiques complètes, XI) [1982], trad. de l'allemand par Michel Haar et Marc B. de Launay. Édition de Giorgio Colli et de Mazzino Montinari. Collection Œuvres philosophiques complètes (No 11), Gallimard, §42[6], p. 436.

36 - Friedrich NIETZSCHE, *Œuvres complètes*, tome XI (fragments posthumes, automne 1884- automne 1885), op. cit., §35[45], p. 261.



كان هو أساس نبوءات نيتشه المتكررة بمجي «الفلاسفة الجدد»، أو «الجيل الجديد من الفلاسفة»، من حيث هم فلاسفة المغامرة والمخاطرة والجرأة على مواجهة إشكالات الوجود³⁷، أو حديثه عن «فلاسفة المستقبل» من حيث هم معادون للدوغمائية وللقيم التقليدية³⁸، ومن حيث هم مفكرون أحرار بالمعنى الحق لهذه العبارة³⁹، وبوصفهم شاكاً ونقاداً ومجربين تجارب جديدة جريئة مؤلمة⁴⁰، ومن حيث هم فلاسفة المستقبل: «الذين سيُمكّن لهم في الأرض وتصير لهم ذلواً»⁴¹، مالكو طريقة في النظر أرسطراطية خلاقة واضحة للنواميس مستوطنة جرأة للإنسان بلا اعتبارات خلقية⁴².

ومثل بشرية اليوم في ذلك كمثل البَحَّار يمخر عباب بحر مجهول له غير معلوم، وهذه السلسلة المؤقتة من القيم الجديدة التي البشرية سائرة إلى سَنِّها لهي ما سماه نيتشه «شرائع القيم الجديدة». وما كان «التجريب» ببدعة في تاريخ البشرية المقبل، بل إن البشرية جربت دوماً وما فتئت تجرب؛ لكنها رفضت أن تعدّ نفسها كانت تُجَرَّب. وإن عليها أن تستأنف التجريب بعد تحنط وتخشب واستحجار دام قروناً. وبهذا المعنى يتحدث نيتشه عن «تجارب التاريخ»⁴³، وعن التاريخ من حيث هو «مختبر كبير»⁴⁴،

Friedrich NIETZSCHE, *Par delà ...*, op. cit., §2, p. 29. - 37

Friedrich NIETZSCHE, *Par delà ...*, op. cit., §43, p. 83. - 38

Friedrich NIETZSCHE, *Par delà ...*, op. cit., §44, p. 83 sq. - 39

Friedrich NIETZSCHE, *Par delà ...*, op. cit., §210, p. 184-185. - 40

Friedrich NIETZSCHE, *La volonté...*, tome 1, op. cit., §7, p. 4. - 41

Friedrich NIETZSCHE, *Œuvres complètes*, tome XI (fragments posthumes, automne 1884- automne 1885), op. cit., §. 37[14], p. 321-322. = Friedrich NIETZSCHE, *La volonté...*, tome 2, op. cit., §667, p. 241. - 42

Friedrich NIETZSCHE, *Fragments posthumes, (Début 1888 - Début janvier 1889)* (Œuvres philosophiques complètes, XIV) [1977], trad. de l'allemand par Jean-Claude Hémery. Édition de Giorgio Colli et deazzinoMontinari, Collection Œuvres philosophiques complètes (No 14), Gallimard. §14[182], p. 145. - 43

Friedrich NIETZSCHE, *Œuvres complètes*, tome X (fragments posthumes, printemps-automne 1884), op. cit., §26[90], p. 196. - 44

وعن كل ما حدث في التاريخ من حيث هو «محاولة وتجريب»⁴⁵، وعن تاريخ البشرية بما يشهد عليه من أنه «مختبر جبار للتجربة». وأوليس من شأن التاريخ - من حيث هو صيرورة بريئة - أن يفتقد إلى أي معنى وغاية، وأن الإنسان هو الذي شأنه أن يدخل المعنى إلى التاريخ؟⁴⁶ وما الإنسان المقوم إلا إنسان مجرب؛ لكنه كان ينسب التجريب لكائن غيبي، أو هو كان يقوم به قياماً غير واعٍ. وخذها العقول الحرة تجرأت على تجريب

يتحدث نيتشه عن «تجارب التاريخ»، وعن التاريخ من حيث هو «مختبر كبير»، وعن كل ما حدث في التاريخ من حيث هو «محاولة وتجريب»، وعن تاريخ البشرية بما يشهد عليه من أنه «مختبر جبار للتجربة».

أنماط أخرى للحياة غير النمط المفروض، أما دعاة الأخلاق فقد تركوا العالم يتصلب ويستحجر. وكم كانت مراحل التجريب البشرية قليلة إن قورنت بمراحل المحافظة والتقليد⁴⁷. إنما ميزة «ما بعد الحداثة» الوعي بهذا الأمر؛ فهو عهد «تجريب واعٍ»⁴⁸. وما زال نيتشه يلحُّ على التجريب حتى عدَّ عهدَه والعهود التي تليه بألاف السنين «عهد إجراء التجريبات»⁴⁹، أو «عهد التجريبات [المحاولات] الكبرى»⁵⁰.

Friedrich NIETZSCHE, *Œuvres complètes*, tome X (fragments posthumes, printemps-automne - 45 1884), op. cit., §27[67], p. 325.

Friedrich NIETZSCHE, *La volonté...*, tome 2, op. cit., §628, p. 230. - 46

Friedrich NIETZSCHE, *Aurore: Pensées sur les préjugés moraux suivi de Fragments posthumes* - 47 (Début 1880 - Printemps 1881) (*Œuvres philosophiques complètes*, IV) [1970], trad. de l'allemand par Julien Hervier. Édition de Giorgio Colli et deazzinoMontinari. Nouvelle édition en 1980, Collection *Œuvres philosophiques complètes* (No 4), Gallimard, §1[38-39], p. 300.

Friedrich NIETZSCHE, *Œuvres complètes*, tome V (le gai savoir et fragments posthumes, - 48 1881-1882), op. cit., §11[276], p. 414.

Friedrich NIETZSCHE, *Œuvres complètes*, tome V (le gai savoir et fragments posthumes, - 49 1881-1882), op. cit., §11[177], p. 376.

Friedrich NIETZSCHE, *Œuvres complètes*, tome XI (fragments posthumes, automne1884- 50 automne1885), op. cit., §35[47], p. 263.



إلى أن يسير العالم؟ جواب هايدغر: فورة الاستعقال وحال الانتظار

عند هايدغر فريدريش نيتشه هو «المفكر الجوهري»، الذي فكّر في كنه كينونة الزمن الحديث⁵¹؛ ففي فكره نعثر على: «آخر تأويل غربي للكينونة، وفي الوقت نفسه [نلمح] الفكر الفاتح للمستقبل»⁵². ولذلك كان صاحب هذا الفكر «آخر مفكري الغرب»⁵³، و«آخر فيلسوف ألماني»⁵⁴، و«آخر ميتافيزيقي في الغرب»⁵⁵. معه شهدنا تحوّل فهم الكينونة إلى «إرادة قوة»؛ يعني «إرادة الإرادة لذاتها». وإنها صارت الإرادة التي تريد إرادتها، والإرادة التي لا إرادة بعدها⁵⁶.

في جانبٍ أساسي منه الحوار مع نيتشه - بحسب تصوّر هايدغر - ما كان ليكون حواراً مع نيتشه الإنسان على التدقيق، وإنما هو حوار مع الواقع؛ وذلك لأن ما حدث في الواقع إن هو إلا تحقّق إرادة القوة والتمكين للإنسان الأعلى - مدار نبوءة نيتشه - في الأرض⁵⁷. ولذلك فإنه ما كان هذا الحوار مع فكّرٍ مضى، إن هو إلا حوار مع فكر تحقق⁵⁸. أكثر من هذا لعلّ العصر الحاضر

51 - Martin HEIDEGGER, *Schelling. Le traité de 1809 sur l'essence de la liberté humaine* [1977], trad. de l'allemand par Jean-François Courtine. Édition d'Hildegard Feick. Mayenne: Gallimard, 1977. (Collection Classiques de la Philosophie.), p. 16-17.

52 - Martin HEIDEGGER, *Les hymnes de Hölderlin*. [1988], trad. de l'allemand par François Fédier et Julien Hervier. Édition de Suzanne Ziegler. Mayenne: Gallimard, 1988. (Collection Bibliothèque de Philosophie, série Œuvres de Martin Heidegger.), p. 177.

53 - Martin HEIDEGGER, *Qu'appelle-t-on penser?* traduit de l'allemand par Aloys Becker et Gérard Granel. Vendôme: PUF, 1992. (collection Quadriga.), p. 103.

54 - Martin HEIDEGGER, *Ecrits politiques. 1933-1966* [1995], trad. de l'allemand par François Fédier. Millau: Gallimard, 1995.. (Collection Bibliothèque de Philosophie, série Œuvres de Martin Heidegger.), p. 103.

55 - Martin HEIDEGGER, *Nietzsche*. [1971], trad. de l'allemand par Pierre Klossowski. TOME I. Collection Bibliothèque de Philosophie (1971), Gallimard. TOME II, Collection Bibliothèque de Philosophie (1971), Mayenne: Gallimard, 1989-1990, p. 374.

Martin HEIDEGGER, *Schelling*, op. cit., p. 317. - 56

Martin HEIDEGGER, *Ecrits...*, op. cit., p. 220. - 57

Martin HEIDEGGER, *Qu'appelle...*, op. cit., p. 105-106. - 58

ما استوعب بعدُ تعاليم نيتشه حقَّ الاستيعاب، وذلك حين عد فكره فِكْرَ خيال جامع، بينما فكر الرجل كان فكر نبوءة بالاتجاه الذي سار عليه التاريخ الحديث وصدر عنه⁵⁹.

لكن هايدغر عُني - أول ما عني - من فكر نيتشه بما لم يفكر فيه هذا. ومن لا مفكر نيتشه أنه حين تصور «الكيونة» حيث هي «قيمة»، لم يعمل - على التحقيق - إلا على إتمام فكرة أفلاطون عن «الخير»، وهو المفهوم الذي قاد إلى معنى «تقدير» الشيء و«حسابه» و«تقويمه» و«تثمينه». والحال أنه عند نيتشه صارت إرادة القوة هي المقومة للقيم⁶⁰. وحين نظر نيتشه في الإنسان، فذهب

**لعلَّ العصر الحاضر
ما استوعب بعدُ تعاليم
نيتشه حقَّ الاستيعاب،
وذلك حين عد فكره فِكْرَ
خيال جامع، بينما فكر
الرجل كان فكر نبوءة
بالاتجاه الذي سار عليه
التاريخ الحديث.**

بنظره مذهباً لا إنسياً، وعاب على الإنسان كبريائه وغروره؛ ما كان في ذلك بصادراً عن منزع عن كل تأنيس بمعزلٍ، وإنما بالضدَّ أنسَ العالم؛ أي إنه أخضعه لتأويل إنسي⁶¹. أوليس حديث نيتشه عن القيم إعادة بناء للعالم على صورة الإنسان؟

وبعد؛ فإن نيتشه هو «مفكر الختم»؛ نعني الخاتم على الميتافيزيقا بختم الكمال، وما كان لهايدغر أن ينظر إليه من حيث هو كذلك لولا أمران:

أولهما: أنه وجد في فكره كل دواعي فكر الميتافيزيقا تتكرر وتتقرر، وقد تألفت ونضجت، فاكتملت: من منزع «ذاتي»، ونزعة «إرادية»، ونزوع «إنسي»، ومسلِك «قيمي»... فكانت فلسفة نيتشه - بهذا - آخر حقيقة انجلت لمفكر عن الكائن؛ نعني حقيقة كون الكائن إرادة قوة⁶².

Martin HEIDEGGER, *Qu'appelle...*, op. cit., p. 112. - 59

Martin HEIDEGGER, *Nietzsche2*, op. cit., p. 182 sq. - 60

Martin HEIDEGGER, *Introduction à la métaphysique*, [1967], trad. de l'allemand par Gilbert Kahn. Paris: Gallimard, 1980, (Collection Tel.), p. 16. Voir aussi: Martin HEIDEGGER, *Nietzsche1*, op. cit., p. 285. - 61

Martin HEIDEGGER, *Nietzsche2*, op. cit., p. 243. - 62



وثانيهما: أن أفكار نيتشه ما كانت تحكُّمات عقلٍ حالمٍ وهامشي، وإنما كانت أفكاراً حُبلى بالتاريخ رائية لِمَاحة؛ ذلك أن ما قاله نيتشه من انتصار إرادة القوة؛ ومن ثم تجلّي الإنسان الأعلى - من حيث هو تجاوزاً للإنسان الأخير، ومن حيث هو ذلك الذي يحصل له التمكين في الأرض - إنما تحقق في زمننا هذا. ألا إن الإنسان الأعلى يحيا بيننا. أكثر من هذا، إنه نحن. ذلك ما كان استشرفه نيتشه، وتحقق في عهد سطوة التقنية⁶³.

عندما اعترض الصحافي الألماني على فيلسوف الغابة السوداء - وقد رسم له المفكر الحكيم لوحة قاتمة عن: إلى أين يسير العالم - اعترض السائل بأن الناظر في أحوال البشرية المتقدمة يقف بنظره على حال البشرية، اليوم، فلا يجد بُدّاً من أن يشهد على أن «كل شيء يسير على ما يرام»؛ إذ ما يفتأ الإنسان ينشئ المحطات الكهربائية، ويحيط نفسه بكل ما لذّ وأفاد من المنتجات والمصنوعات، وأن شأن الناس الذين يعيشون في البلدان المتطورة أنهم ما فتئوا يُشبعون حاجاتهم بكامل الإرضاء، غير متسخطين، وأن الإنسانية الغربية - على العموم - تحيا في سعة ولذاذة ودعة. وتأسيساً عليه سأل الصحافي هايدغر: ما الذي ينقص البشرية المتمدنة حتى هي لا تسعد؛ ومن ثم ما الذي يدفع الفيلسوف إلى التسخط على أوضاعها؟ أجاب هايدغر جوابه الشهير: «أجل كل شيء يسير على ما يرام. هذا هو الأمر المطلق حقاً؛ أعني أن يسير الأمر على ما يرام، وأن يقود نجاح سيره إلى مواصلة مستجد السير، وأن تعمد التقنية إلى مزيد اقتلاع للإنسان من الأرض واجتثائه»⁶⁴!

والحال أنه لطالما عبر هايدغر عن قلقه من سير أمور الإنسان التقني على ما يرام، وعدم شعوره لا بالحاجة ولا بالشدّة، فبالأحرى إحساسه بالشقوة! ذلك هو الإحساس الرواقي الغريب الذي سماه «الأمر المطلق حقاً في شقاء غياب الشقاء»،

Martin HEIDEGGER, *Les concepts fondamentaux de la métaphysique: Monde - finitude - 63 solitude* [1992], trad. de l'allemand par Daniel Panis. Cours professé à l'Université de Fribourg-en-brisgau pendant le semestre d'hiver 1929-1930. Édition de Friedrich-Wilhelm vonHerrmann. Gallimard, 1992. (Bibliothèque de Philosophie, série Oeuvres de Martin Heidegger.), p. 32.

Martin HEIDEGGER, *Ecrits...*, op. cit., p. 258.

- 64

كما وجد فيه الدلالة على أن الإنسان، إذ هو استأنس بالواقع الذي يحيا فيه، انقاد له، وسار مع الكائن، وأغفل غيره. والحق أنه «في غياب الشقوة والحاجة هذه تتحقق أشد أضرب الشقوة اختفاء». وإن غياب الشقوة هذا ليمثل فيما يلي: ظاهر الأمر أن الإنسان يعتقد أنه دانت له واقعية الواقع، وباطنه أنه تَوَهَّتُهُ المتأوه.

والظاهر أن الحداثة التقنية - وهي سمة عالم اليوم الأساسية - استأنست بالكائن، من حيث هو «الموضوع»، بله «المرصود»، وأنها أُنْسَتْه، حتى صار لها طريفة. ها قد صار الإنسان الحداثي يحيا داخل عالم الكائن مطمئناً راضياً، وما زال يرضى واقعه ولا يسخط عليه، حتى سمي عيشة «الشقوة» و«الحاجة»

و«الخصاصة» هذه - التي كان يحيا عليها - «رضاً»، وأنشأ من رضاه هذا «حكمة». كذا كان حال هيغل وأتباعه مثلاً. أوليسوا هم الذين وسموا وضع الإنسان الحديث بوضع «الإنسان الراضي»، وصيروا من الفيلسوف «الحكيم المترضي واقعه»، وعَدُّوا كل أنحاء استشكال هذا «الرضا» «تمرداً» فردياً على تحقق الشأن الكوني» استنكروا أمره.

إن نحن رُمنّا تشخيص عالم اليوم لن نزيد عن أن نقول: إنه الحال الدال على «غيبية الكينونة». وقد أَشَّرتْ على ذلك أمارات؛ منها: هيمنة الكائن حُدَّ عربدته، وغيبية الآلهة وأقولها حد

استرارها، واجتثاث الإنسان من موطنه حد تَبِهِهِ... والحال أنه ليس أشد على الإنسان - في نظر هايدغر - من أن ينفطر العقد الذي يجمعه بالكينونة؛ فقد افتنن الإنسان المعاصر بالكائن ونسي الكينونة، وكان أن اهتم بأمر «المرصود» - الأدوات التقنية أو الأواني - وأهمل شأن مبدئه: المعاني والقيم. وذلك هو عهد هيمنة حادي «الاستعقال» و«الاستغلال» و«الاستصناع» ⁶⁵Ge-stell.

65 - Martin HEIDEGGER, Questions, TOME IV: Temps et Être - La Fin de la philosophie et la tâche de la pensée - Le Tournant - La Phénoménologie et la pensée de l'être - Les Séminaires du Thor - Le Séminaire de Zähringen. Gallimard, 1990. (Collection Tel.), p. 320.

عندما اعترض الصحفي الألماني على فيلسوف الغابة السوداء - وقد رسم له المفكر الحكيم لوحة قاتمة عن: إلى أين يسير العالم - اعترض السائل بأن الناظر في أحوال البشرية المتقدمة يقف بنظره على حال البشرية، اليوم.



ومما طمّ الوادي على القرى أن ضيق الإنسان بالوجود هذا - حتى وإن كان ضيقاً شبيهاً لا حقيقياً الشأن فيه أن يخفي باطنه (شقاء الكينونة وغيابها)، وأن يبدي ظاهره (فقد الكائن لمعناه، وشقاؤه) - ضيقٌ يستعيب عنه الإنسان الحديث بتوجيه نظره نحو أرجاء الكون الفسيحة. فأمره العجب أن يغطي عن اجتثاث جذوره، وذلك بالفتح يعقب الفتح، والكشف، يتلو الكشف والغزو يربو عن الغزو. وفي ذلك تمام «شقاء الكينونة» الشقاء الخفي، الذي يغطي عليه الإنسان بغزو العالم، واختراع الأشياء، واكتشاف المواد واستناعتها⁶⁶.

وأمام صولة الحداثة وهيمنة آثارها ما عاد ثمة سوى إمكانين: إما الهروب خارج زمن الحداثة والنكوص إلى زمن ذهبي متخيل أكثر مما هو متحقق. هذا هو الأمر الذي عكسته جميع أنحاء ردود الفعل على الحداثة، الكارثية منها والقيامية والرومانسية، بلا تمييز. وإما «إفراغ الوسع في النظر والتفكير». وهو الطريق الذي اتبعه هايدغر. وإنه لطريق يقوم - بدءاً - على القبول بالعصر، ما دام أن «لا عصر يمكن تجاوزه بإنكاره مجرد الإنكار. فما كان الإنكار، إلا لصاحبه ناكراً»⁶⁷، وما دام أنه: «ليس بمكنة المرء أن يهرب من عصره بمجرد القفز عليه»⁶⁸، وما دام من شأن ذلك الإنكار - إن هو حصل - أن يعبر عن: «الهروب والعمى أمام اللحظة التاريخية»، التي هي لحظة التقنية⁶⁹؛ فقد تحصلت بهذا ضرورة القبول بالحداثة، وبالتقنية التي هي روح الحداثة التي لا روح لها.

معنى هذا أن هايدغر أراد أن يكون نظره في الحداثة عن التفاؤل والتشاؤم بمعزل. فما كان قيام التقنية في عهد الحداثة بالحدث السلبي؛ أي

Martin HEIDEGGER, *Nietzsche 2*, op. cit., p. 316.

- 66

Martin HEIDEGGER, *Chemins qui ne mènent nulle part*. [1962], traduction revue et corrigée avec le concours de Jean Beaufret, François Fédier et François Vezin. Cher: Gallimard, 1986. (Collection Tel.), p. 127.

Martin HEIDEGGER. *Le principe de raison*. [1962], trad. de l'allemand par André Préau, préface de Jean Beaufret. Cher: Gallimard, 1983. (Collection Tel.), p. 267.

- 69

Martin HEIDEGGER, *Chemins...*, op. cit., p. 349.

عمل الشيطان، ولا هو كان بالعمل الإيجابي؛ أي تحقيق جنة الخلد على الأرض⁷⁰؛ إنما شأن حدث التقنية أنه الحدث الذي يلزم أن يُتأمل.

بدءاً؛ لطالما رفض هايدغر أسئلة النبوءة، قائلاً: ما كانت النبوءة من الفلسفة في شيء⁷¹، ومكرراً: لا أحد بمكنته أن يتنبأ بالتقلبات التي سوف تشهدها المنجزات التقنية في المستقبل⁷²، ومضيفاً: إن شأن الفكر ألا يركز نظره على مستقبل يدعي معرفته⁷³. كما كان هايدغر يحقّر ادعاء النبوءة بالمستقبل، حتى تحدث عن «مسخرة النبوءة»⁷⁴، وتكلم عن «الادعاءات النبؤيّة»⁷⁵. وكان كلما سمع الحديث عن «علم استشراف المستقبل»

Futurologie استهزأ ضارحاً إلى السماء⁷⁶، منبهاً إلى أنه رافض لذلك الضرب من التفكير القائم على «التوقع»، والذي من شأنه مناجاة نفسه المناجاة: لو أنه ما حدث كذا، لكان الحادث الآن كذا⁷⁷. غير أن هايدغر لطالما تنبأ، وهو تنبأ - أولاً - بأنه ليست الشعوب التي لها مصادر طبيعية غنية هي التي سيكون لها دور في المستقبل، وإنما ذلك شأن الشعوب التي أمرها أن تقتدر على أعظم الاختراعات⁷⁸. وتنبأ - ثانياً - بما صار يدعى «الاستنساخ»، أو ما قاربه، من حيث هو عهد انتهاء

لطالما رفض هايدغر أسئلة النبوءة، قائلاً: ما كانت النبوءة من الفلسفة في شيء، ومكرراً: لا أحد بمكنته أن يتنبأ بالتقلبات التي سوف تشهدها المنجزات التقنية في المستقبل، وأن شأن الفكر ألا يركز نظره على مستقبل يدعي معرفته.

Martin HEIDEGGER, *Questions 3 et 4*, op. cit., p. 454. - 70

Martin HEIDEGGER, *Nietzsche 2*, op. cit., p. 119. - 71

Martin HEIDEGGER, *Questions 3 et 4*, op. cit., p. 142. - 72

Martin HEIDEGGER, *Le principe...*, op. cit., p. 207. - 73

Martin HEIDEGGER, *Questions 1 et 2*, op. cit., p. 250. - 74

Martin HEIDEGGER, *Ecrits...*, op. cit., p. 265. - 75

Frédéric de TAWARNICKI, *A la rencontre de Heidegger*. Gallimard, 1993. (collection: Arcades.), p. 122. - 76

Martin HEIDEGGER, *Qu'appelle...*, op. cit., p. 256. - 77

Martin HEIDEGGER, *Ecrits...*, op. cit., p. 171. - 78



الإنسان، بعد أن استصنع الأشياء كلها فصنعها، إلى طلب استصناع ذاته، أو قل: طلب «تصنيع نفسه بنفسه»⁷⁹. وتنبأ بأنه لربما كانت روسيا والصين البلدين اللذين من شأنهما عودة الخطوة إلى الوراء لاستعادة فكر موروث من أمره أن يهيئ للإنسان إمكان إقامة صلة مع عالم التقنية تكون حرة وأصيلة⁸⁰.

تثنية: فيما يتعلق بمسألة «الحدثة» نبهنا هايدغر إلى أمور المستفاد منها مجهول استعلام أمر «نهاية الحدثة»، ومنها قوله: «إن العصور الحديثة ما كان لها لأن تمضي أبداً وتنتهي، وإنما هي - بالضد من ذلك - لم تعمل إلا على بدايتها، وإن اكتمالها ليجتاج - بلا مرية - إلى زمن طويل جداً»⁸¹، وإن: «الأزمة الحديثة الأوروبية لم تعمل إلا على التجلي والسريان على كوكب الأرض بأكمله»⁸²، وإن: مبدأ الحدثة - «الاستعقال» و«الاستصناع» و«الاسترصاد» - حكّم وجود أجدادنا التاريخي، وهو يحكم وجودنا الآن، وسيحكم وجود أخلافنا في الآتي من الزمن، وذلك لأمد غير معلوم⁸³، وإن: «العهد التقني لم يعمل إلا على الشروع في البدء»⁸⁴، وإن: «الحضارة الحديثة ليست إلا عند بدئها»⁸⁵. وكلها أقوال دلت - عنده - على أن العلم بأمر «نهاية الحدثة» علم بغياهب المجهول. غير أن هايدغر «وازن» هذه الأقوال بأقوال أخرى أفادت قرب «نهاية الحدثة واكتمالها»؛ فقد أنشأ يقول: «إن الأزمة الحديثة على وشك اكتمالها»⁸⁶، وإن الغرب ليحيا اليوم «المرحلة القصوى من حدثته»⁸⁷. ومهما يكن من أمر؛ فإنه لئن كان هايدغر قد ميز في الأزمنة

Martin HEIDEGGER, *Questions 3 et 4*, op. cit., p. 447. - 79

Martin HEIDEGGER, *Ecrits...*, op. cit., p. 266. - 80

Martin HEIDEGGER, *Qu'appelle...*, op. cit., p. 52. - 81

Martin HEIDEGGER, *Qu'appelle...*, op. cit., p. 243. - 82

Martin HEIDEGGER, *Le principe...*, op. cit., p. 196. - 83

Martin HEIDEGGER, *Ecrits...*, op. cit., p. 263. - 84

Frédéric de TAWARNICKI. *Martin Heidegger: Souvenirs et chroniques*. Paris: Rivages, 1999, p. 21. - 85

Martin HEIDEGGER, *Nietzsche*, op. cit., p. 373. - 86

Martin HEIDEGGER, *Questions 1 et 2*, op. cit., p. 467. - 87

الحديثة بين ما سماه «العهد التمهيدي من الأزمنة الحديثة»، وامتداده ما بين سنوات 1600 و 1900، وبين عهد الاكتمال الذي لاح في القرنين الأخيرين، وجعل من نيتشه مدشن عهد الاكتمال هذا؛ فإنه أكد - من جهة أخرى - أن المدة التي يستغرقها هذا الاكتمال ليست معلومة لنا. ولنا أن نخمن أنها إما ستكون قصيرة جداً و كارثية، أو طويلة جداً ودائمة⁸⁸.

لكن، لئن لم يكن للفلسفة أن تتنبأ بالمستقبل؛ فليس يعني هذا أن ليس لها أن تضع له أسسه، ولئن حق أن النبوءة ليست من اختصاص الفلسفة، حق أيضاً أن الفلسفة ليست إمعة شأنها أن تتبع الأحداث التبعية⁸⁹. معنى هذا أنه

لئن لم يكن للفلسفة أن تتنبأ بالمستقبل؛ فليس يعني هذا أن ليس لها أن تضع له أسسه، ولئن حق أن النبوءة ليست من اختصاص الفلسفة، حق أيضاً أن الفلسفة ليست إمعة شأنها أن تتبع الأحداث التبعية.

إن ما حُقَّ للفكر «ادعاء النبوءة»؛ فإنه يمكنه أن «يستشرف المستقبل»: ومعنى «أن يستشرف المستقبل»، أن يعمد - بدءاً من ملامح العصر الحاضرة - إلى أن يستبق الفكر في الزمن القادم، وذلك من غير نبوءات دعية⁹⁰. والحال أن ذاك «الفكر المستشرف» هذا لأمر «الحدث الجسيم» لا يمكنه إلا أن «يشير». وبعد هذا وذاك ما كانت المسألة مسألة «تأريخية»، وإنما هي مسألة «تأريخية»؛ فزمن الحادثة هذا الذي نحن شاهدوه زمنٌ من شأنه أن يدوم وسيدوم ديمومة لا يمكن لأي أمر تأريخي أن يقيسها⁹¹؛ فقد تحصل أن الأمر أمر متعلق بمصير الكينونة، لا بحساب البشر.

ومهما تصرفت الأحوال؛ فإن ما كان هايدغر متأكداً منه هو أن الزمن الذي ازدهر اكماله في فكر نيتشه - أي عهد الأزمنة الحديثة - إنما هو

Martin HEIDEGGER, *Nietzsche1*, op. cit., p. 272. - 88

Martin HEIDEGGER, *Nietzsche2*, op. cit., p. 119. - 89

Martin HEIDEGGER, *Ecrits...*, op. cit., p. 265. - 90

Martin HEIDEGGER, *Essais et conférences*. [1958], trad. de l'allemand par André Préau, Cher: Gallimard, 1958. (Collection: Les Essais.), p. 162. - 91



«مرحلة نهائية». وهذا يعني أنه الزمن الذي شأنه أن يتخذ فيه «القرار التاريخي»؛ إما بالختم بدمغة «الاكتمال» على تاريخ الغرب، أو ببداية «إصباح جديد»⁹². ثمة حاجة إلى «فكر آخر» يتعلق بحقيقة الكينونة ويهيئ لبُدُوها⁹³، ولربما لهذه الأسباب مجتمعة كنت تجد هايدغر يتحدث عن العصر الحاضر من حيث هو «عصر أفول». وما كان ليقصد بذلك أنه «عصر انحطاط»، على نحو ما رامه أصحاب القول بانحطاط الأزمنة الحديثة، فما كان «الأفول» عنده «انحطاطاً»؛ إنما شأن الحديث عن «الأفول»: الاعتقاد بأن على العالم القديم أن يموت؛ ليترك المجال لبدء «فكر جديد»، هو «بدء للكينونة جديد»، أو «بُدُو لها مستأنف»⁹⁴.

Martin HEIDEGGER, *Nietzsche*1, op. cit., p. 374.

- 92

Martin HEIDEGGER, *Questions 3 et 4*, op. cit., p. 100.

- 93

Jean GREISCH. «Etudes heideggériennes: Les «contributions à la philosophie (à partir - 94 del'EREIGNIS) de Martin Heidegger». *Revue des sciences philosophiques et théologiques*, (73), 1989. p. 625.